محمد الأديب الأعظم

للأستاذ درية خشبة

لا أدري لماذا يشفق الكتاب أن ينعتوا النبي الكريم بالأديب العظيم ؟! هل في ذلك سبة أو فيه حط من قدره صلى الله عليه وسلم؟ وإذا لم يكن الرجل الذي أوحى إليه بهذا القرآن أديباً فماذا يكون الأديب ؟

لقد ترك النبي فينا كتاب الله وسنة النبوة ، وفيها جوامع الكلم التي لم يؤتها إلا هو . ولقد علم بهذين ما لم يعلم فيلسوف بفلسفته ، ولا أديب بأدبه ، ولا نبي بما أرسل به . . . أسلوب مُعجز ، ومعنى مُعجز ، واتفاق بين الأسلوب والمعنى معجز ، وغرض يشمل كل الكائنات معجز ، وحياة هي البطولة المعجزة . . . وأمية لا تعرف القراءة والكتابة يسبح القراء والكُتاب في بحر لجي من قرآنها وحديثها . . . علماً وأدباً ولغةً وبياناً وهدًى وتشريعاً وأخلاقاً . . . فماذا يصنع الأدب غير ذاك ؟ الأديب يترك أثره في حيز محدود من بيئته ، لأيام معدودات من زمنه ، ويكون بعد ذلك رجعاً كرجع الصدى في تضاعيف ذكرياته ، حيث يكون شعراً في ديوان ، أو قصة يلتذ بقراءتها أفراد ، أو درامة يستمتع بشهودها ملأ من الناس ، ثم ينصرفون فلا تكون لها في أذهانهم إلا صورة أو فكرة قد تدفعهم إلى فضيلة أو تنهاهم عن رذيلة . . . فماذا ترك الأديب الأعظم محمد بن عبد الله من هذا وذاك ؟! أستغفر الله بل ترك أدباً حيًّا يتقلقل في نفوس الملايين من الناس الملايين من الأجيال حتى تقوم الساعة . يحضهم على الخير ، وينهاهم عن المنكر ، ويستهويهم بصور رائعة من أدبه الحق الذي نسميه الأدب الواقعي يُشرب قلوبهم المحبة الخيّرة النيّرة ، ويعمرها بالسلام القائم الدائم ، ويعلمهم الإنسانية ، ويحبب إليهم الإخاء ، ويروضهم على المساواة . . . إلا فيما رفع الله به الناس بعضهم فوق بعض درجات

قد يقول قائل إن هذه الدعوى من باب إقحام الدين في الأدب والأدب في الدين . . لأن الدين هو الذي صنع كل هذا . . ونحن نقول إن الدين هو الذي صنع كل هذا حقاً ولكنه صنعه بأسلحة شتى ووسائل متفاوتة ، وقد كان أمضى هذه الأسلحة ، وأشرف تلك الوسائل . . هو الأدب . . فالرسول الكريم كان حلو الكلام أغر البيان طلق المقاطع ، ذا قدرة عجيبة في تنسيق حجته ، والتدقيق في عبارته ، في غير كلفة ولا صنعة حتى وهو في مواقف الخطابة . . ولم يحفظ الأثر أنه حصر مرة أو أرتج عليه ، أو التاث عليه القول ، لا على المنبر ، ولا في حلقة الدرس ، بل كان يتدفق ويشقق الحديث إذا اقتضى الموقف الإطناب ، ويقتصر على العظة الصغيرة بلفظها ، الكبيرة بفحواها إذا لم يقتض الحال غير ذلك

ثم ها هم أولاء الأنبياء جميعاً . . . فمن منهم تحدى قومه بقوة البيان وصوغ الكلام وإعجاز الأسلوب ؟! وما ذلك كله إن لم يكن أدباً ؟ وماذا يكون صاحبه إن لم يكن سيد الأدباء ؟! إن الله الذي يسّر القرآن بلسان محمد قد تحدى الناس أن يأتوا بشيء مثله ، فما استطاعوا ؛ وما يزال التحدي قائماً ، ولسوف يعجز البشر جميعاً عن أن يجيئوا بشيء مثل القرآن . . . والقرآن وحي الله ، وقد يسره الله بلسان نبيه ، والقرآن تشريع ليس فيه جفاف القانون الوضعي ، وقصص من النسق الإلهي الذي لا يتعلق الغرائز بالفتنة في الحياة الدنيا بل يسمو بها إلى لذائذ الحياة العليا ؛ ثم عظة بالغة ، ودعوة إلى الحق ، ودستور للناس لا يعتوره نقص ولا تشوبه شائبة

هل الأدب قصة أو درامة فحسب ؟! إن كان هذا فقد قص النبي أحسن القصص وأقواه وأكثره حلاوة وطلاوة ، وأشده روعة وتأثيراً . . . وأي قصص أشهى وأحلى وألذ مما يسر الله بلسان نبيه في آدم ونوح وإبراهيم وموسى ويعقوب ويوسف ويونس وهود ولوط وعيسى من أنبياء الله ؟!

أم يقولون إنها أخبار مروية فيما يؤمنون أنها الكتب المقدسة التي أنزل الله من قبل ؟ ! ونقول أجل . . . ولكن أين هي هذه

الكتب التي أنزل الله ؟ أباقية هي على ما أنزل الله لم يعتورها تغيير ولا تبديل ؟ ألم تشحنها أقلام الرواة والنُسّاخ بما طاب لهم وبما ندّت به أقلامهم ؟ ... أحقًا قد زنى داود ؟ أحقًا قد وقع جميع الأنبياء في الخطيئة ؟ لقد جاء القرآن مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل مما لم تبدله قرائح البشر ، فبرّأ الأنبياء مما أُخِذوا به باطلاً من الدنس ، ثم روى أخبارهم بلسان صدق عَلِيّ وبأروع بيان وأدق أسلوب ، ثم حدّث النبي بما يشبه أن يكون تعليقاً وشرحاً وتفسيراً فجاء بكل معجب وكل مطرب ... ثم حدّث بالأحاديث القدسية العالية التي مسرحها السماء ومُلهمها الله القدير، فأي درامات الكتاب والشعراء أروع مما تحدث به النبي ؟ وأي حديث زخرفه قلم شاعر أو ناثر أو روائي يسمو إلى الحق الذي تنزل به جبريل على فؤاد محمد وما حدّث به محمد من تخاصم أهل النار وتحدث أهل الجنة ، والواقفين على الأعراف ، والولدان المخلدين ، والكواعب الأتراب ، ومخاطبة العزيز اللطيف لمن فاز من عباده، وغيظ الكافرين وما يقع بينهم وبين إبليس من شحناء وموجدتهم على الشياطين والنار تؤزهم ... ؟

هذا هو القصص الحق الذي لم تبهرجه يراعة مؤلف ، ولم يختلقه خيال روائي . وهذا هو قصص الله الذي خلق الإنسان علمه البيان ... الله الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ... الله الذي أرسل للناس نبياً عربياً من الأميين ، فقضى أن تكون أمية عجيبة مُعجزة تفهم كل شيء وتبهر كل شيء ، وتبهر المتعلمين والدارسين بما لا يستطيعونه ولا يقدرون على مثله أو بعضه ... أمية أعدها الله لهذا الأمر العظيم إعداداً لا تقوى جامعاتنا الحديثة على شيء مثله ... أمية أبوتها في بني هاشم ، وخئولتها في بني زهرة ، ورضاعها في سعد بن بكر ، ونشأتها في قريش ، وزواجها في بني أسد ، وهجرتها إلى الأوس والخزرج . فانظر كيف تقلبت في القبائل فتمرست بها ، ووعت لغاتها ، ووقفت على أسرار بيانها ، فلما بعثها الله لهذا الأمر لم تضق ذرعاً بأحد ، ولم تضق فهماً بلسان أحد ، بل كانت تكلم كلاً بلسانه ، وترد على كل بلهجته . بل هي قبل أن يبعثها الله لتبليغ رسالته كانت تحب الأدب وتشغف به ، فكانت تتردد على الأسواق تصغي إلى الشعراء والخطباء ، وتحفظ من الخطب ولا ترى حرجاً في أن تروي منها [1] .

علل أحد البصريين أمية الرسول الكريم : فقال : « إن الله إنما جعل نبيه أمياً لا يكتب ولا يحسب ولا ينسب ولا يقرض الشعر ، ولا يتكلف الخطابة ، ولا يتعمد البلاغة لينفرد الله بتعليمه الفقه وأحكام الشريعة ، ويقصره على معرفة مصالح الدين دون ما تتباهى به العرب من قيافة الأثر ، وعيافة الطير ، ومن العلم بالأنواء وبالخيل ، وبالأنساب وبالأخبار ، وتكلف قول الأشعار ، ليكون إذا جاء القرآن الحكيم ، وتكلم بالكلام العجيب ، كان ذلك أدل على أنه من الله ... وزعم أن الله لم يمنعه معرفة آدابهم وأخبارهم وأشعارهم ليكون أنقص حظاً من الحاسب والكاتب ، ومن الخطيب والناسب ، ولكن ليجعله نبياً ، وليتولى أمر تعليمه بما هو أزكى وأنمى ، فإنما نقصه ليزيده ، ومنعه ليعطيه ، وحجبه عن القليل ليجلي له الكثير ... »

وقد تولى شيخ أدباء العرب أبو عثمان الجاحظ (البيان ج ١ ص ٢٣٠) نقض هذا الكلام فقال : « وقد أخطأ هذا الشيخ ولم يرد إلا الخير ، وقال بمبلغ علمه ومنتهى رأيه ، ولو زعم أن أداة الحساب والكتابة ، وأداة قريض الشعر وجمع النسب قد كانت فيه تامة وافرة مجتمعة كاملة ، ولكنه صلى الله عليه وسلم صرف تلك القوى وتلك الاستطاعة إلى ما هو أزكى بالنبوة وأشبه بمرتبة الرسالة ، وكان إذا احتاج إلى البلاغة كان أبلغ البلغاء ، وإذا احتاج إلى الخطابة كان أخطب الخطباء ، وأنسب من كل ناسب ، وأقوف من كل قائف ، ولو كان في ظاهره والمعروف من شأنه أنه كاتب حاسب ، وشاعر ناسب ، ومتفرس قائف ، ثم أعطاه الله برهانات الرسالة وعلامات النبوة ، لما كان ذلك مانعاً من وجوب تصديقه ، ولزوم طاعته ، والانقياد لأمره ، على سخطهم ورضاهم ، ومكروههم ومحبوبهم ؟ ولكنه أراد ألا يكون للشاعر متعلق عما دعا إليه ، حتى لا يكون دون المعرفة بحقه حجاب وإن رق ، وليكون ذلك أخف في المؤنة ، وأسهل في المحنة ، فلذلك صرف نفسه عن الأمور التي كانوا يتكلفونها ويتنافسون فيها ، فلما طال هجرانه لقريض الشعر وروايته صار لسانه لا ينطق به ، والعادة توأم الطبيعة ، فأما في غير ذلك فإنه إذا شاء كان أنطق من كل منطيق ، وأنسب من كل ناسب ، وأقوف من كل قائف ، وكانت آلته أوفر ، وأداته أكمل ... إلا أنها كانت مصروفة إلى ما هو أبعد ... ويبين أن يضيف إليه العادة الحسنة ، وامتناع الشيء عليه من طول الهجران له فرق ... ومن العجب أن صاحب هذه المقالة لم ير

(١) في البيان والتبيين ج ١ ص ٢٠٣ أن النبي (ص) سمع قس بن ساعدة وقال فيه « رأيته يسوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول : أيها الناس اجتمعوا ، فاسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت . » وجا في كتب الأدب غير ذلك .

فى حال معجزة قط ، بل لم يره إلا وهو إن أطال الكلام قصر عنه كل مطيل ، وإن قصر القول أتى على غاية كل خطيب ، وما عدم منه إلا الخط وإقامة الشعر ... الخ »

فالجاحظ هنا يحاى عن معرفة النبي لآداب العرب — وهو ما يعنينا — وعن إلمامه بما كان تفخر قومه وعمل نبوغهم ... ولما كان أعز ما يفتخر به العرب هو البيان فإنه لم يمنع النبي مانع إذا أراد البلاغة أن يكون أبلغ البلغاء ، وإذا أراد الخطابة أن يكون أخطب الخطباء ، وإنه إن أطال الكلام قصر عنه كل مطيل ، وإن قصر القول أتى على غاية كل خطيب ... »

وهذا دفاع مجيد من شيخ الأدباء العرب عن النبي الأديب الأعظم فى معرض ما فهم أحد علماء البصرة من أمية محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو دفاع رجل كان يهب حياته للأدب ، وكان يعنى بأدب الرسول خاصة ، وكان يصف كلامه فيقول[1] : « هو الكلام الذى قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف ، وكان كما قال الله تبارك وتعالى قل يا محمد : « وما أنا من المتكلفين » فكيف وقد عاب التشديق ، وجانب أصحاب التقعير ، واستعمل المبسوط فى موضع البسط ، والمقصور فى موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشى ، ورغب عن الهجين السوقى فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة ، وشيد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق

« وهذا الكلام الذى ألقى الله المحبة عليه ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الافهام وقلة عدد الكلام ، ومع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ولا يطلب الفلج إلا بالحق ، ولا يستعين بالخلابة ، ولا يستعمل المواربة ، ولا يهمز ولا يلمز ، ولا يبطئ ولا يعجل ، ولا يسهب ولا يحصر . ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ، ولا أصدق لفظاً ، ولا أعدل وزناً ، ولا أجل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين فى فحواه ، من كلامه صلى الله عليه وسلم كثيراً ... »

والذى وصف به الجاحظ كلام الرسول قول حق ، وهو كان يفضل به كلامه صلى الله عليه وسلم على كل كلام العرب ، أما نحن فنجعل حكم الجاحظ أعم وأشمل . فليس فى كلام أحد من الفرنجة قاطبة كلام يشبه كلام الرسول فيما رسمه الجاحظ ... وقد يقول قارىء غير مسلم : « كاتب مسلم متحمس للرسول فهو لا يستطيع أن يقول غير هذا ! » كلا والله ... فلقد قرأت ودرست أدب الأقدمين شعراً ونثرا وخطبا ؛ ولقد قرأت ودرست أدب النهضة فى جميع الممالك الأوربية ؛ ولقد قرأت ودرست ووازنت بين أدباء عصر بركليس وأدباء عصر إليصابات ، وأدباء عصر لويس ، وأدباء القيصرية الروسية ، فلا والله ما وجدت أجدهم يرتفع إلى أدب الرسول ولا يحكيه غزارة ورقة وازدحاما بالمعانى وشمولا للاغراض . وهذه هى خطب ديموستين فى التبغيض فى الارستقراطية والتبشير بالديمقراطية ... أين هى من هذه المساواة العجيبة التى أقامها محمد بين هذه الملايين بقوله : إنه لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ؟ بل أين هذا الخطيب الوضيع المرتشى الذى يقول بلسانه ما ليس فى قلبه ، والذى فر من مواطنيه اليونانيين حتى إذا لاحقوه وضيقوا عليه عمد إلى السم ليضع حداً لمهزلة حياته الفياضة بالمخازى ؟ أين هذا الخطيب الذى يحفظ الأثر خطبه كأنها المثل الأعلى للخطابة من الرسول الكريم الذى لم يكن ينطق عن الهوى ، والذى ألف بخطبه بين أشد القلوب عنجهية وأفدحها جاهلية وأكثرها عصبية ، فخلق منها أمة تعبد رباً واحداً بعد أرباب ، وتنتشر من الصحراء بمصابيح الهداية فتملأ المشرقين والمغربين نوراً وهداية وحكمة وعرفاناً ؟

ثم خطيب الرومان شيشرون ! هذا الرجل الذى فضح مارك أنطوان بخطبه الرنانة .. ماذا ترك لخير الإنسانية من كل ما كتب وخطب ؟ لقد كان محامياً مدرهاً ، فهل كسب للانسانية قضية كهذه القضية التى كسبها لها محمد بن عبد الله ؟ لقد كتب فى القانون والفلسفة والأخلاق ، فهل حل معضلاتها المعقدة كما حلها محمد بن عبد الله النبى الأمى ؟ ولقد حفظ لنا الأثر كثيراً من خطبه ومقالاته ، فهل فيها ما يرتفع إلى بيان محمد وبلاغة محمد ؟ هل استطاع أن يضع للرومان دستوراً يحمى الجمهورية ويحول دون قيام الامبراطورية كهذا الدستور الذى أوحى به إلى محمد ، والذى يسره الله بلسان محمد ؟

ثم هذا دانتى ... هذا الكاثوليكى القح ... الذى يرفعه مؤرخو الأدب إلى ذروة المجد بما يهرج فى الكوميديا الإلهية ؟ ماذا جاء به من السحر فى هذه المنظومة ؟ لقد أثبتنا بما نشرناه

(١) البيان ج ٢ ص ٣٨

فى « الرسالة » أن كل شيء رائع فى هذه القصيدة ليس من صنع دانتى ، بل هو مما سرق دانتى من أخيلة[1] القرآن وبيان الأحاديث فى وصف الجنة ووصف الجحيم، وذلك بما انتشر من ثقافة القرآن وثقافة الأحاديث بعد الحروب الصليبية وقبلها عن طريق الأندلس وعن طريق صقلية إلى فرنسا ثم إيطاليا

ثم هـذا ملتون ... فأين ما جاء فى فردوسه من الحرب بين الشيطان وبين المسيح وأجناد المسيح مما جاء فى القرآن والحديث من تحاور بين الله العلى وبين إبليس، وبين إبليس وبين ملئه الذين أغواهم فأدخلهم النار ثم تبرأ منهم وهو يرسف معهم فى سواء الجحيم ؟!

ثم هذا جون بَنْيَنْ ! فماذا جاء به فى « رحلة الحاج » مما ليس له مثل بل أمثال تبذه وتزرى به فى أدب محمد النبي الأمى ؟

وهذا بيكون الأديب النائب العـام والـكاتب الأخلاقى الفيلسوف المرتشى الذى لم يرع لذى فضل عليه فضله ولم يكن عنده من الوفاء ما يجزى به ذوى الأيادى الغر عليه[2]، ماذا كتب فى فصوله فى الأخلاق مما لم يسبقه إليه الرسول الأعظم ؟

والأدباء العظام فى عصر لويس الرابع عشر : بيير كورنيل وديكارت وموليير وراسين ولافونتين ، إننا نقولها كلمة حق لا تصدر عن حماسة فحسب، بل عن تروية ويقين: إن المُثل الرائعة التي زاد بها هؤلاء فى تراث الفكر الانسانى والثقافة الانسانية هى قل من كثر مما ضاعف به النبي هذا التراث ، ونحن نقول المثل لأن النبي لم يكن ضحاكاً كموليير ولا فيلسوفاً كديكارت ولا مؤلف درامات كراسين ، بيد أنه مع ذلك أنشأ للانسانية مُثُلاً أسمى مما أنشأ هؤلاء ، وأنشأها كلها عن طريق الأدب

والأدباء الذين مهدوا للثورة الفرنسية ... ڤولتير وديدرو وبومارشيه ورسو ... هل أنشأوا ثورة كهذه الثورة التي أنشأها محمد بن عبد الله وقام بها وحده ؟! وأين هى الثورة الفرنسية التي انتهكت فيها الحريات باسم الحرية ، وخضعت فيها الـكرامات والشرائع لجنون الشعب وعربدة النساء ولوثة الأوشاب من تلك الثورة العظيمة فى سبيل الحق وخير الإنسانية وانتشال العقل من براثن الأغوال الحجرية التي كان يعبدها الناس ... هبل ويغوث ويعوق ونسر واللات والعزى وضمار ؟! أى الثورتين كانت أروع وأيهما كانت أعود بالخير على الناس وعلى الأفهام ؟!

لقد كتب روسو إنجيل الثورة، ، فهل رسم فيه ما رسم القرآن للناس أجمعين فى كل العصور ؟! وهل كاتب إنجيل الثورة كهذا الوحى الذى يسره الله بلسان محرر ؟!

ثم هؤلاء منشئو الأدب الألمانى : جوته صاحب فاوست ، وشيللر صاحب وليم تل ، ولسنج مؤلف لاوكون ، وهم الذين أعدوا الذهن الألمانى إعداده الذى غير عليه قرن ونصف قرن ، الإعداد الذى لا يعرف شيئاً وهو المثل الأعلى غير القوة والغَلَب، هل جعلوا ألمانيا تقهر العالم فى أقل من عشر سنين كما جعل محمد أمته تصنع ذلك ؟ وإذا قدر لألمانيا أن تصنع ذلك ، فهل كانت تنشر الأمن والطمأنينة والعلم والنور ودين الحق بالسلام كما نشر العرب ذلك جميعاً فى ربوع العالم ؟ أم أنها كانت تستعبد الناس وتذلهم وتقول لهم أنتم ساميون وحاميون ... و ... آريون ... أما نحن فآريون نورديون ؟ ! فى حين يقول محمد للناس : « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى !! »

أم أدباء روسيا: لرمنتوف وجوجول وتولوستوى ودستوفسكى وترجنيف وپوشكين وچوركى ؟! ماذا أسلف هؤلاء جميعاً ؟! لقد مهدوا بأدبهم الباكى المتوجع البائس الفقير الغارق فى الدموع لهذه الشيوعية المخربة التي تستبد بالناس وتسومهم الخسف وتهدم مساجدهم وكنائسهم ويبعهم وتبيح نساءهم باسم الدولة ... فكأنهم تخلصوا من راسپوتين ليقعوا فى براثن ستالين !!

وبعد ... فنحن لا نحصى أدباء العالم هنا لنوازن بين ما انتهى إليه أدبهم وبين ما انتهى إليه أدب الرسول الـكريم ... ونحن لا نقص من الآداب الرائعة التى لها قيمتها ولها أثرها لنرفع أدب نبينا بغير الحق، بل نحن نقارن بين مُثُل ومُثُل ونوازن بين خير كثير أصاب الإنسانية على يد رجل واحد وخير كثير أصابها على أيدى كثيرين ، وشتان بين الأدبين

أما أن يقول أحد إن الأدب هو القصة ، فلقد قص الرسول أحسن القصص وأروعه ، فى أحسن عبارة وأقوى أسلوب ... وأما أن يقول أحد إن الأدب هو الشعر ، فما كان محمد شاعراً ، ولم ينبغ له أن يكون شاعراً ، ومع ذلك فقد يسر الله بلسانه فى القرآن من المعانى والأوصاف والأمثال والتشريع والحكمة وجمال الأداء ، وإعجاز التراكيب ، ما لم يتيسر لشاعر من شعراء العالمين . وكذلك حديث رسول الله ، فهو ثروة ثانية من أروع صور الآداب ، ومنهل عذب للواردين

وأما أن يقول أحد إن محمداً لم يؤلف درامة ، فحسبه أنه كان

(١) نحن نؤمن أنه ليس بالقرآن خيال إنما به الحق المحض ، إنما نحن هنا بمعرض دراسة أدبية فحسب

(٢) سوف نكتب عن كل هؤلاء إن شاء الله فى فصولنا (أعلام الأدب)